القرآن ومعالجة التلوث الفكري

الدكتور سعيد سالم سعيد فاندي

جامعة غريان–الجماهيرية الليبية

مثلما يتعرض جسم الإنسان للتلوث الجوي يتعرض عقله للتلوث الفكري، وذلك بالمعلومات الكاذبة والأحكام الفاسدة، فتصبح حياة الإنسان مشحونة بالضلالات موجهة بالانحرافـــات، والمؤثرات الفكرية المضللة أعظم خطر المؤثرات الحسية المعطلة، يصور ذلك القرآن الكريم في أدق صورة من البيان، تعالى:﴿ وأتلُ عليهـــم نبأ الذي أتيناه آياتنا فأنسلخ منها، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، ولو شئنـــا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ [الأعراف 175،176] فعندما استحـــاب ذلك الرجل العالم لهـــواه، وكـــان من قوم موسى صار أمثولـــة في الانحراف يعلم الشيطان بعد إعراضه عن الحق، وصار في هيئة الكلب سوءاً لا يرى إلا منقطع الأنفاس خبيث النفس سيء المصير .

ومن شرف العقل أن الله جعله مناط التكليف الشرعي، ومحل الخطاب الديني، ولن يستقيم له وضع إلا بالاستجابة لنداء الحق، ولن يكون للحق تمثل إلا بالعقل الذي يدرك الحسن فيما أمر الله به، والقبـــح فيما نهى عنـــه، فآخى القرآن في آياتـــه بين التنزيـــل والتفكير، فقال اللطيف الخبير: ﴿ كتـــاب أنزلناه إليك مبـــارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ص23، فالشرع مورد، والعقل مصـــدر

انبجاسه، والذكر نور والعقل مظهر انعكاسه، يقول الغزالي (فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل، وهما متعاضدان بل متحدان)[1].

ويقول في بيان كون العقل يوضح معالم الشريعة ويشحذ الإرادة بالالتزام ويحرزها من ترك الواجبات واقتراف الآثام(فالعقل كالأساس والشرع كالبناء)[2]. وتالف العلم مع الإسلام ؛ لأن العلم صدر عن الوحي في صورته اليقينية المطلقة، كما صدر عن العقل في صورته الاجتهادية المفسرة، يقول محمد عبده: (علا صوت الإسلام على وساوس الطغام، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام، ولكنه فطر على أن يهتدي بالعلم والأعلام)[3]. ويتوجه القرآن في مخاطبته العقل الإنساني من خلال أبوابه ونوافذه كلها، بل ويتجاوز الخطاب إلى الوجدان الذي يفجره الوحي بأنوار الهداية، ويثوره بالحق كما يهدي العقل بالبرهان، من أجل ذلك كان القلب مادة العقل في القرآن، بل سخر الحواس لخدمة العقل وكأنها جزء منه لا أداة من أدواته، فقال تعالى: ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [ق 37]، يقول محمد الطاهر ابن عاشور في هذا المعنى عند تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾ [الإسراء 36] (أولئك يعود إلى السمع والبصر والفؤاد وهو من استعمال اسم الإشارة في غير العاقل تنزيلاً لتلك الحواس منزلة العقلاء، لأنها جديرة بذلك إذ هي طريق العقل)[4]. واتسع خطاب القرآن للعقل

1- أبو جامد الغزالي –معارج القدس – القاهرة –ط 1927 – ص 60

2 – أبو جامد الغزالي –معارج القدس، ص. 59

3- رسالة التوحيد – مصر – دار المعارف – ط رابعة – ص 157

4- التحرير والتنوير – تونس – الدار التونسية للنشر – 1988 –102/15

فشمل جميع خواصه ومهماته، يقول العقاد :(فلا ينحصر خطاب العقل في العقل الوازع، ولا في العقل المدرك، ولا في العقل الذي يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح، بل يعم الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنساني من خاصة أو وظيفة)[1]، ومن صور مخاطبته للعقل الوازع قوله تعالى: ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ [الأنعام 151]، ومن خطابه للعقل المدرك قوله تعالى: ﴿ ما يذكر إلا أولو الألباب﴾[آل عمران 7] .

ومن نداءاته للعقل المستنبط قوله تعالى:﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ [آل عمران 191] ومع تلك العلاقة التلازمية بين العقل والوحي، والتمازج المنسجم بين الخطاب الشرعي والفهم العقلي، فإن الإسلام قدم تحصيناته الواقية، وعلاجاته الناجعة في حماية التفكير الذي هو نتاج العقل من التلوث بآفات تنأى به عن النظر الفسيح والتأمل الثري، والحكم الصحيح ،والاستدلال السوي ومن أهم الآفات الملوثة والمعالجات القرآنية لها ما يلي:

أ_ الوهم والهوى:

يمكن تعريف الوهم بأنه خطأ العقل في تصور الحق، وينشأ من خطل في الرأي عند الاستنتاج وإصدار الأحكام ،أو خلل في الرواية عند نقل المعلومات بطريق الخبر، وقد أشار القرآن الكريم إلى صور من الوهم فقال تعالى: ﴿ ويحسبون أنهم على شئ ألا إنهم هم الكاذبون﴾ [المجادلة 18]، وقال تعالى :﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ﴾، [المؤمنون 115] فقد تضمن الفعل يحسبون معنى الوهم ،وقد يكون الوهم

---

1 - التفكير فريضة إسلامية – بيروت – دار الكتاب اللبناني – ص. 8

شديد الإلتباس على العقول، فيسميه القرآن الظن، كما في قوله تعالى: ﴿ وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾ [الجاثية 24]، وكثيراً ما يمتزج الوهم بالهوى الذي هو الميل إلى أمر استجابة للشهوة النفسية ولو كان مخالفاً للحق قال تعالى:﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾[النجم23].

وحاول الفلاسفة الأقدمون والمحدثون مغالبة الوهم والهوى، والتجرد من الأفكار العالقة غير المثبتة، والرغبات الذاتية في تفسير الأشياء وإصدار الأحكام العقلية، ولكن طلب الحق المجرد عن الأغراض يبقى غاية ينفرد بها الوحي وحده، لما يملك من بدائل أخروية تعوض الإنسان عن تضحيته في التنازل عن هواه ومصارعة الأوهام، وكان أول ما تبناه فرنسيس بيكون ت 1626 م.

هو الكشف عن أصنام التفكير أو أوهامه بعد تقسيمها إلى أصنام المسرح سيطرة النظريات القديمة على العقول، وأصنام الكهف طريقة الفرد الخاصة في تفسير الأشياء، وأصنام القبيلة أوهام عامة في الجنس البشري وهي وضع نظام للعالم قبل التحقق منه في الواقع، وأصنام السوق[1] الاستخدام الخاطئ لألفاظ اللغة، ومن أدوات القرآن في معالجة الأوهام والهوى أنه يكشف عن حقيقة بالغة وهي أن محدودية العقل توقع في الوهم، وتطمعه في البرهان، فيقع في الريغ بهذا التوسع الذي لا تناسب فيه بين العالم والمعلوم، قال تعالى: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً [الإسراء 85]، وقال تعالى: ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ [يوسف 76]، وقال تعالى في

1- أرنست بلوخ – ترجمة إلياس مرقص –فلسفة عصر النهضة –بيروت –دار الحقيقة – ط أولى- 1980م – ص 101

بيان سعة ودقة المعلومات الغيبية والمشاهدة﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ﴾ [الكهف 109]، وقد اعترف أكثر الفلاسفة المعاصرين بهذه الحقيقة يقول كارل يسبرس الفيلسوف الوجودي: إن من الحماقة الاعتقاد بأن الوجود هو ما تقع معرفته وإدراكه في حوزة كل منا)[1]

فإحساس الإنسان بأن جهازه العقلي محدود الخصائص والوظائف يجعله لا يبالغ في الإعتقاد بسلامة كل ما يصدر عنه من أحكام، بل إنه في حاجة إلى ترشيد وتسديد بالوحي الصادر عن خالق ذلك العقل المحدود، لذلك يتجه العلماء الصادقون في تأملهم والمتجردون من أهوائهم إلى الله تعالى مذعنين مقرين بعجزهم عن التوسع والتعمق، قال تعالى: ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [فاطر 28]

ومن وسائل القرآن في مقاومة الوهم والهوى عرض البراهين الواقعية الساطعة وأكثرها مبثوث في الآيات الكونية كما دلت على ذلك الآيات القرآنية: ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ﴾ [ق6]، ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ [فصلت 39]، ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ [الشورى29]، ولفت الإنسان إلى تأمل ذاته فقال: ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الداريات 21]، ونـــادى القرآن الكريم بضرورة أن يكون المفكر متصفاً بالمصداقية وإخلاص النية حتى لا يضلل نفسه بالمقدمات الصحيحة فيستخرج

1- بوخنسكي: تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوربا – ترجمة محمد عبد الكريم الوافي – بنغازي قاريونس – ص 282

منهـــا نتائج خاطئة، قال تعالى: ﴿ فأدعوا الله مخلصين له الدين ﴾ [غافر 14]، ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ [يونس 101].

(قد يعترض البعض بالقول بأن المعلومات الصحيحة لا يمكن أن تكون مضللة غير أن بعض التفكير في هذا الأمر يوضح لنا إمكانه، فالتضليل يتضمن عناصر لا تتعلق بمصداقية المعلومات التي يسردها بقدر ما تتعلق بنوايا من يسردها، إن الذي يقول مالا يعتقد يكذب ويضلل حتى وإن صادف وإن اتسق قوله مع الواقع)[1] فصحة الإعتقاد في النتيجة أكبر عوامل نجاح البرهنة على الحق، وطلب اليقين هو أعظم حصن للعقل من الوهم والهوى، ولليقين في القرآن أوصاف كثيرة منها البينة والحق، قال تعالى: ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾ [محمد 14]، يقول الفخر الرازي في تفسير الآية: (ذلك أن من زين له سوء عمله وراجت الشبهة عليه قـــد يتفكر في الأمر ويرجع إلى الحـــق فيكون أقرب إلى من هو على البرهان، وقد يتبع هواه ولا يتدبر في البرهان، ولا يتفكر في البيان، فيكون في غاية البعد)[2] وقال تعالى في الجمع بين الحق واليقين: ﴿ وإنه لحق اليقين﴾ [الحاقة51]

وإذا كانـــت كثير من الأحكام الخاطئة تصدر عن العقل بسبب مزجـــه بين أوهامه وبعض الحقائق الصحيحة، فإن القرآن حذر من هذا اللبس، فقال تعالى: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾[البقرة 42] يقول ديكارت وقد شعر بضرر هذا اللبس في حديثه عن تقسيم الأفكار: (ومنها ما يضيق فيه الذهن بفعله شيئاً إلى مجرد تمثل

1- نجيب الحصادي – أوهام الخلط – بنغازي – قار يونس – ط أولى-1989م – ص104

2- مفاتيح الغيب –بيروت – دار الكتب العلمية (1411/1990) –46/28

الموضوع مثل الأهواء إذ تضاف الرغبة إلى فكرة الموضوع)[1] ولا تعارض بين الالتزام بطلب اليقين وحرية التفكير، ذلك لأن حرية العقل انضباط في المنهج وليس انسياقاً وراء الميول الذاتية، وكما أنه في الحرية الأخلاقية: (من لم يتمسك بالخير فليس بحر)[2] فكذلك في طلب قيمة الحق، ويقول سقراط في معنى الحرية: (هو التحرر من الشهوات)[3]، والأهواء من الشهوات ومن حقنا أن نفخر نحن المسلمين بأن طريقنا الأول إلى الحق هو الوحي القائم على اليقين، وليس تصور القائمة في أكثر أحكامها على التخمين، وهذا موافق لنداءات الفلاسفة والمناطقه في تعريفاتهم لليقين الذي عجزوا عن تحصيله حيث قالوا: (اليقين اعتقاد جازم صادق مدلل عليه)[4].

وقال تعالى مصوراً صدق ما يوحي من علم وأنه الحق والنور المبين: ﴿ قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾ [يونس 108] ،﴿ يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ [المائدة 147] وقال تعالى: ﴿ وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ [هود 120] .وإذا طالبنا خصوم من المغرضين بأن نترك عقيدتنا ونتجرد منها عندما نفكر في المغيبات، فإنا نطالبهم بأن

1- التأملات في الفلسفة الأولى - ترجمة عثمان أمين - القاهرة - الإنجلو المصرية - ص117

2- فرانز روزنتال - مفهوم الحرية في الإسلام - ترجمة معن زيادة ورضوان السيد - بيروت - معهد الإنماء العربي - ط أولى - 1978م - ص 76

3- موسى محمد علي -الإسلام دين الإنسانية - بيروت - عالم الكتب - ط ثالثة (1405 1984) ص 77

4- نجيب الحصادي - نهج المنهج - مصراته - الدار الجماهيرية للنشر - ط أولى - ص 142

يطرحوا أوهامهم وأهواءهم، ويفكروا في عقيدتنا التي تحققنا من صدقها حق اليقين بالبراهين الكونية والعقلية، قال تعالى: ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا الله مثنى وفرادي ثم تتفكروا﴾ [سبأ 46]، وقال تعالى: ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد﴾ [فصلت 53]، وقال في شأنهم﴿ أرأيت من إتخذ إلهه هواه، أفأنت تكون عليه وكيلا﴾ [الفرقان 43]

ب ـ الأعراف الفكرية الفاسدة :– وهي ترد إلى العقل إما من الموروثات الخاطئة، أو من آراء الآخرين المنحرفين، فتستقبلها العقول التي يغلب عليها منهج التلقي والامتصاص لاسيما إن وجدت فراغاً عقلياً، فتأخذ مكانها ممثلة فكراً غير متجانس، لأنه لا يرتبط بعقائد أو ثوابت فكرية راشدة، وقد صور القرآن الكريم هذا العنصر الملوث للتفكير السوي فقال تعالى في شأن المستقبلين لأقوال وأحكام واعتقادات سابقيهم من غير نظر ونقد: ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون، وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ [الزخرف 22،23]، وقال تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ [البقرة:170]

جاء في تفسير ابن عرفة الورغمي (فإن قلت: ما أفاد قوله ولايهتدون مع أن نفي العقل عنهم يستلزمه، فالجواب: أن المراد لا يعقلون شيئاً من ذات أنفسهم ولو لم ينههم غيرهم لما اهتدوا)[1].فهم لا يعرفون إلا سبيل التقليد، ولاينطقون إلا بأسلوب

1- تفسير الإمام ابن عرفة ـ تحقيق حسن المناعي ـ تونس ـ مركز البحوث بالكلية الزيتونية (1407 / 1987) ـ 2 503 .

الترديد، وقال تعالى:﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون ﴾ [الأعراف 28]. وقال تعالى في وصف الضالين بأفكار آبائهم :﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون﴾ [الصافات 69، 70] .

فتلوثت المعلومات، لأنها لا توزن بالعقل الصريح ولا تتبع منهج الشرع الصحيح، وقد يكون التأثير بالأفكار الفاسدة فردياً بعد الإعجاب أو الإستئناس والمصاحبة، قال تعالى على لسان المؤمن يوم القيامـــة الذي تخلص من تأثير قرينه فاسد الرأي والمعتقد: ﴿ فأطلع فرآه في سواء الجحيم، قال تالله إن كدت لتردين، ولو لا نعمة ربي لكنت من المحضرين أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴾ [الصافات 55،59]، وقال تعالى ﴿ وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون﴾ الأعراف 202] .

و إذا كان القرين محصناً بالفكر الرشيد والعقيدة الخالصة، فإنه يعمل على تطهير عقل صاحبه من التلوث العالق، قال تعالى في صاحب الجنة الذي طغى واستكبر﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً، لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا ﴾ [الكهف 27،28] .

ويقاوم الإسلام الأفكار الفاسدة الموروثة والمستمدة من العقول الضالة بطلب البرهان والنظر في نتيجة كل رأي ومقدماته، لذلك تنادي كثير من الآيات في المحاورة

بإبداء البرهان الذي هو صواب الرأي وموافقته للحق والواقع، والذي يعرفه المناطقة بأنـــه (مجموعة من القضايا تنقســـم إلى جزئين: المقدمات والنتيجة)[1].

فيقول تعالى مرشداً نبيه صلى الله عليه وسلم إلى محاورة الخصم بالبرهان: ﴿ قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي﴾ [الأنبياء 24]، وقال تعالى: ﴿إئتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علـــم﴾ [الأحقاف 4] .

وقال تعالى: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتـــــم إلا تخرصون﴾ [الأنعام 148]. واستنكر دعاوي الكافرين غير المستندة إلى علم يبرهن على صحتها فقال تعالى: ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ [الأعراف28]

وحذر القرآن من الإنسياق وراء آراء الآخرين من غير نظر وتبصرة، فقال تعالى: ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾ [المائدة 77] .

وأرشـــد نبيه صلى الله عليه وسلـــم إلى الحذر من تأثيرات آراء أهل الكتاب المعرضيـــن المحرفين: ﴿ولا تتبع أهوائهم وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ [المائدة 49] .

جـــ **منهج التفكير** :- قد يكون الإنسان مقاوماً لوهمه معرضاً عن هواه، طالبـــاً الحق بالبرهان، ولكنه لا يستقيم له استدلال ؛ لأنه يفتقر إلى المنهج الذي ينظم مقدمات تفكيره ونتائج استدلاله، يقول ديكارت :- (العقل أعدل الأشياء

1- نجيب الحصادي ـ أوهام الخصم ـ ص 75

قسمة بين الناس، أما اختلافهم في الآراء فلا يرجع إلى أن بعضهم أعقلُ من بعض، بل إن عقولهم تسلك مناهج متباينة في دراستها)[1]، وبين وظيفة المنهج الصحيح بأنه (ينبغي أن يؤدي إلى نهايات واضحة)[2].

وكل حضارة لها معالم منهجية تغلب على طرائق ومقاصد تفكيرها، وقد أشار القرآن إلى ذلك فقال تعالى: ﴿لكلٍ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ [المائدة 48]، وحضارة القرآن الروحية الفكرية تنظم خصائصها المنهجية في معالم تتسم بالوضوح والدقة والنزاهة، لذلك وصف الله الإسلام بأنــه الصراط المستقيم، والصراط في استعمــال العرب الطريق الواســع الواضح، فشمولية الإسلام ووضوحه من أبرز خصائصه، ووضوحه علامة صحته، لأن الفكرة القويمة واضحة منتظمة الأجزاء أي ذات منهج منسجم، قال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولاتتبعوا السبل فتفرق بكــم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ [الأنعام 153]، لذلك حذر القرآن من الوسائل الملوثة لوضـــوح الفكرة، ووصف المنافقيـــن بأنهم يفتقدون وضوح أفكارهم كافتقارهم إلى وضوح مشاعرهم، قال تعالى: ﴿وإن يقولوا تسمع لقولهــم كأنهم خشب مسندة﴾ [المنافقون 4] ووصفهم في كثير من المواطن بأنهم لا يفقهون، ووصف الله كتابه بأنه مبين في مواضن كثيرة درءا مفسدة غموض الفكرة ولبسها بالخفاء

وإذا كانـــت التعميـــة والتوسع في الألفاظ على حساب المعاني تؤدي إلى تلوث المعلومـــات والأفكار، فإن القرآن قاوم ذلك بقاعدة منهجية تقتضي الدقة في

---

1 - نجيب الخصادي _ أوهام الخبط _ ص . 223

2- م. ن. 225

إظهار الفكرة بحيث لا يطغى اللفظ على المعنى، فوصف الله كتابه بالإحكام والتفصيل قال تعالى: ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ [هود 1]، وقال تعالى: ﴿ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ﴾ [فصلت 3]

وقدم لنا القرآن الكريم مشاهد قصصية وحوارية ترسخ توخي الدقة في التعبير عن المراد، فهو يزكي مقالة ملكة سبأ عندما سئلت عن عرشها الذي نقله سليمان من قصرها إلى قصره في طرفة عين: ﴿ كأنه هو ﴾ [النمل 43]، ولم تقل إنه هو احتراساً من اختلاف النوع وتشابه الخواص، وفي تأصيل القرآن لقاعدة عقدية ترجع إليها تأويلات معاني الصفات المعبر عنها بالمجازات يقول تعالى: ﴿ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ﴾ [الشورى 11] أي ليس منّ شأن من كان إلهاً أن يشابه المخلوقات، ولم يقل ليس مثله شئ، وفي التعبير عن الوحدانية وهي الصفة الفارقة بين الموحدين والمشركين قال تعالى في تعبير واضح دقيق: ﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الإخلاص 1]، ولم يقل قل هو الله الواحد، لأنه ليس المقصود الوحدة العددية، ولكن المراد الدلالة على التفرد في الذات والصفات والأفعال ونفي النظير والشبيه والمشارك في الصفات الإلهية، والمتأمل في أسلوب القرآن يكتسب في تعبيراته صفة الدقة، فيمحو بذلك كل أثر للإفاضات اللفظية التي تطغى على المعاني، ويستطيع أن يجعل الفكرة متحكمة في الكلمة، ولا يجعل الكلمة متحكمة في الفكرة، فينجو من تلوث الفكرة. ومن مقاصد القرآن الكريم النزاهة في طلب الحق، فلا يكون المفكر في معاني القرآن والمفسر لمفرداته وتراكيبه إلا طالباً للحق بمقصد الإخلاص ووسيلة العلم، قال تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله

ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ [آل عمران 7].

وتشابه القرآن لاينا في وضوحه لأن التشابه هو عجز العقل عن إدراك المعنى القرآني على وجه الإحاطـــة، والقرآن من علـــم الله لا يحيط بأبعاده ولا يحد أعماقه عقل بشري يفهم مقصود خطابه، ويقصر عن منتهى ذلك الخطاب.

ونعى القرآن على الكاذبين الذين يطفئون الحق بأغراضهم ويفسدون المنهج بأراجيفهـــم فقال تعالى :﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ [هود 18]، وتكرر هذا الاستفهام الإنكاري في مواطن كثيرة، وقال صلى الله عليه وسلم مستجيباً لنداء القرآن في ضرورة أن تكون وسيلة الدعوة بالحق وغايتها الحق (من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)[1].

فالنزاهـــة في طلـــب الحق تمحق كل آفة تتسرب إلى عقل لتفسده، وتتسلل إلى حضارة فكرية لتهدمها، وفرق الله في كتابـــه الكريـــم بين من يحسن استخـــدام وسائل العلـــم ليصـــل بها إلى الحق وبين من يسئ استخدامها ليقرر بهـــا رأياً فاسداً أو يحقـــق بهـــا غرضـــاً زائغـــاً قال تعالى: ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون ﴾ [هود 24] .

وقال تعالـــى :﴿ قـــل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور﴾ [الرعد 16] فمنهج القرآن هو منهج تميز بالوضوح والدقة والحق في

1- صحيح مسلم بشرح النووي – كتاب الإيمان – باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم 1 66

القواعد والمقاصد قال تعالى :﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ [إبراهيم 1] وبالمقابل فإن أعداء القرآن لا منهج لهم قال تعالى: ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ [الحج8]، ويصور القرآن ذلك المنهج متكاملاً في قصة إبراهيم مع قومه فقال تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لاأحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا رب هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إني بريئ مما تشركون﴾ [الأنعام 75 - 78]، فتدرج إبراهيم مع قومه في الاستدلال وفقاً لمنهج الاستقراء حتى وصل بهم إلى نتيجة حاسمة كان يؤمن بها ولكنه يريد أن يبرهن عليها بطريق الملاحظة. يقول ابن جزي: (قال ذلك لقومه على وجه الرد عليهم والتوبيخ لهم... لقوله بعد ذلك إني بريء مما تشركون، ولا يتصور أن يقول ذلك وهو منفرد في الغار، لأن ذلك يقتضي محاجة ورداً على قومه)[1].

وفي لفتات القرآن الكريم تقرير لمنهج الاستقراء وهو يحث العقول على متابعة الظواهر للاستدلال على حقيقة الألوهية والتوحيد، كما أرسى دعائم المنهج القائم على الفهم والتأويل، يقول محمد ياسين عريبي: (وهناك منهج رئيسي آخر اكتشفه الفكر الإسلامي ألا وهو منهج العلوم الإنسانية بصفة عامة، والذي يعرف بمنهج

1- التسهيل لعلوم التزيل – ليبيا تونس – الدار العربية للكتاب – د.ت – ص 228 .

الفهم والتأويل .... ويمكننا رد هذا المنهج من الناحية النظرية إلى المسلمة القرآنية اقرأ[1].

وخطابات القرآن جميعها تطالب المخاطب بمنطوقها ومفهومها أن يتصف بالعلم والتعقل والفقه الذي هو الفهم الدقيق، ويتساءل القرآن ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ [النساء 82]، [محمد24]، وذلك أقوم سبيل لدفع الشبهات الفكرية، وكبح جماح الشهوات الغرضية التي تفسد المنهج، وتلوث الفكر .

د_ **القرآن والحوار**:- ومن آليات القرآن في تسديد منهج تفكير الإنسان تأصيل مبدأ الحوار، من أجل تفعيل العقل بالوحي، فالقرآن الكريم خطاب من الخالق إلى مركز التحكم في المخلوق وهو العقل، تعبر كلماته عن تعاليم سامية، وهي تلتحم في عبارات وصور متوافقة في الأسلوب والمنهج والمقصد، ومن أجل تمام ذلك التوافق كانت مساقات الحوار تأخذ مساحة تعبيرية واسعة في النص القرآني، ففي نوع من أنواع الحوارات القرآنية، وهو ما يدور بين الخالق والمخلوق، يتخذ صوراً متعددة على حسب اختلاف أطرافه،وموضوعاته وأغراضه، فقد يكون حوار المؤانسة والملاطفة، مثل ما جرى بين الله تعالى ونبيه موسى عليه السلام: ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى؟ قال هي عصاي، أتوكأ عليها، وأهش بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى ... ﴾ [طه17، 18] فالله أعلم من المسؤول بالمسؤول عنه، ولكنه يريد أن يُشعر عبده موسى بالأمن مع عصاه التي ستنقلب معجزة مخيفة في هيئة حية تسعى، ويريد أن يمن عليه بتمام رحمته بملاطفته في ذلك التكليم الذي خصه به، وللحوار هنا معنى روحي وتربوي عميق في نفس المتلقي الذي يهيأ من الله ليحمل

---

[1] - موقف ومقاصد في الفكر الإسلامي المقارن –ليبيا تونس – الدار العربية للكتاب – ص 27

أعباء رسالة عظيمة، وفي هذا درس بليغ للمربين والمصلحين من البشر الذين يلزم أن يتلطفوا مع الناشئين والموعوظين ويسأل إبراهيم عليه السلام ربه سؤال اطمئنان إلى مشاهـــدة الحق بالعيان كما تمثله بالبرهان، فيقول: (رب ارني كيف تحيي الموتى؟)، فيسأله ربه وهو أعلم بما في قلبه من يقين، ولكن من أجل تعليـــم بقيـــة الأتبـــاع أن الأنبيـــاء لا يشكون، فيقول تعالى:(قال أولم تؤمن ؟) ،ويحكي عن إبراهيم رده :﴿قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ [البقرة 260].

وقد حدث مثل هذا الحوار مع الملائكة من قبل في قصة آدم عند خلقه: ﴿وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ [البقرة 30]. فهم يسألون للاستبيان، لا للإعتراض، متعجبين من عمل لا يدركون حكمته، وقد يصدر السؤال من المخلوق المقرب إلى خالقه استزادة في طلب العلم بحقيقة أمر يجهل مصادره أو موارده، كما توجه موسى إلى ربه سائلاً، ومترحماً بعد أن صعق من قومه سبعون رجلاً: ﴿قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾[الأعراف155]، فجاء الجواب الإلهي:﴿ قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء، فسأكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ [الأعراف156]

وهـــذا نوح عليه السلام يدعـــو ربه في حوار بين الأب الذي فقد ابنا متمرداً وبين خالقه وخالق ابنه: ﴿ رب إن ابني من أهلي، وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾، فيجيب الله عبده الحزين على ابنه الكافر: ﴿ إنه ليس من أهلك إنه عمل غير

غير صالح ﴾ [هود 45، 46]. وفي مواضع كثيرة من القرآن الكريم تستبق الآيات الزمن، وتتخطى حدود هذا العالم، لتوصلنا بزمان ممدود، حيث الناس قيام ينظرون إلى أعمالهم، وينتظرون جزاءهم يوم القيامة .

وتـــدور حوارات بين الديان والعباد، تختلف بحسب المواقف، وأحوال المحاورين، فيحاور الله الرســـل، كمـــا صور ذلك في صورة المائـــدة: ﴿يوم يجمع الله الرسل، فيقـــول ماذا أجبتـــم قالوا: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ [المائـــدة109]، ويسأل المرســـل إليهم بالصيغـــة نفسها: ﴿ماذا أجبتم المرسلين﴾ [القصص65]. وقد جمع الدلالة على مساءلة الفريقين بقولـــه: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم، ولنسألن المرسلين﴾ [الأعراف 6] .

ويخاطب الله عباده المتمردين من الجن والإنس يوم القيامة كما ورد في قوله تعالى:﴿ويوم يحشرهم جميعاً، يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾ ... [الأنعام128]. ويسأل الكفـــار ربهـــم يوم القيامة إخراجهـــم من النـــار وإعادتهم إلى الدنيا ليعملوا صالحاً قائلين :﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنـــا فإنا ظالمون﴾ [المؤمنون 107]، ولكن الجواب مخيب لآمالهم: ﴿ أخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴾ [المؤمنون 108]، ويقولون في موضع آخر مما حكاه القرآن: ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ [فاطر 37]، فيجيبهم سبحانه: ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءكم النذير فذوقوا، فما للظالمين من نصير﴾ [فاطر 37] .

وجاءت في القرآن حوارات تؤصل منهجية النقد الذاتي سواء منه الموجه إلى الذات المصدرة للخطاب، أو الذات الأخرى المتوافقة معها في المعتقد والمصلحة الاجتماعية، وشواهده في القرآن كثيرة، لأن هذا المقصد النقدي سر التطور في الحياة

العقلية والمسيرة الحضارية. فهذا داود عليه السلام، يتعرض للاختبار بحوار تصويري حيث يبرز له الملكان في صورة رجلين تسلقا أسوار القصر إلى محرابه: ﴿ قالوا خصمان بغى بعضنا على بعض، فأحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة، ولي نعجة واحدة، فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب، قال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه .. ﴾، وهنا يتنبه داود إلى خطئه في ترك الأولى: ﴿ وظن داود أنما فتناه، فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب﴾ [ص 22،23،24] .

ويحاور موسى أخاه هارون ناقدا لأسلوبه في معالجة المتمردين على العقيدة الإلهية بعبادة العجل: ﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمري، قال: يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل، ولم ترقب قولي ﴾ [طه 92 ،93، 94] .

وجاء النقد الذاتي في حوار جماعي، كما في تلاوم أهل البستان الخصيب، ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾، [القلم 30، 31،32]. وقد يقتصر المحتج في حواره على المقدمة من غير ذكر للنتيجة، لقوة التلازم بين المقدمات والنتيجة، أو لأن الخصم يسلم بالنتيجة إذا سلم بالمقدمات، لقيامها على بديهيات أو مسلمات يقر بها، كما في قوله تعالى في تصوير الحوار الدائر بين موسى وفرعون: ﴿ قال فمن ربكما يا موسى، قال ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ﴾ [طه 49،50]، وقد يصل الحوار إلى نقطة التوقف، إذا كانت المقدمات ليست تحت سيطرة حس وعقل المحاور، كما في الحوار الدائر بين أصحاب الكهف: ﴿ قال قائل منهم كم لبثتم؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾ [الكهف19] .

وقد يعتـــرض القرآن بجمل في تلك الحوارات تؤكد مبدأ الموضوعية إلى مبلغ مجاراة الخصـــم في المقدمة لمصادرتها بعد ذلك ضده في النتيجة المستنبطة في أسلوب إستدلالي حكيم في قوله تعالى: ﴿ قـــال ان إفريته فعلي إجرامي، وأنـــا برئ مما تجرمـــون ﴾ [هـــود 35]، وقولـــه تعالى: ﴿ وإنا أو أياكم لعلى هـــدى أو في ضلال مبين﴾ [سبـــأ 24]، وقوله تعالى على لسان الرسل، موظفين مقدمة المعارضين بخلاف مقصدهم، وهي قولهم: ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا﴾ [إبراهيم 10]، ثم تأتي حجة الرسل: ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ...﴾ [إبراهيم 11]، واجتماع حجة الرسل لم تكن بوحدة الزمان والمكان، بل بوحدة الخطاب، حيث إن كل رسول واجهه المعاندون من قومه بتلك المقوله من لدن نوح إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

ويصـــور القـــرآن نوعـــاً آخـــر من الحـــوار وهو التدافـــع بالمحاجـــة الذي يـــدور بين الدعاة والمعارضيـــن، وبين المؤمنين والكافرين، وبين الظالميـــن والمظلومين، وبين المستضعفين والمستكبرين، وهو أكثر أنواع الحوارات انتشاراً في القرآن، لما فيه من الدلالة على نتائج عقدية أساسية في تكوين المؤمن، وتربية عقله ووجدانه، ومن الصور الحوارية الداخلة في هذا المجال ما دار بين الابن الكافر ووالديه المؤمنين قال تعالى: ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج، وقد خلت القرون من قبلي، وهما يستغيثان الله، ويلك آمن، فيقول: ما هذا إلا أساطير الأولين﴾ [الأحقاف17] .

ومن أمثلة الحوارات الدائرة بين المؤمنين والكافرين ما ورد في قوله تعالى في ثمود قوم صالح: ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه، قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون، قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ [الأعراف 75،76] .

القرآن والتعليل :- ومع توظيف القرآن في منهج استدلاله لآلية الحوار، فإنه يعتمد مبدأ التعليل، فتتعاضد الآليتان من أجل التحقق من سلامة المقدمات وانسجامها حتى تؤدي إلى نتائج صحيحة، وكان المتوقع في التعاليم الدينية أن تبنى على التلقي والتسليم، غير أن القرآن سلك سبيل التعليل، حتى يخلد نصه بتقبل العقل، ويسلم العقل بهداية النص، فالكشف عن الدافع المؤثر في أي معلول خيراً أو ظاهرة هو الخطوة الأولى في طريق الاستدلال على وجود الله تعالى واتصافه بالوحدانية والكمال ؛ لأن الإنسان عندما ينظر في الكون من أصغره إلى أكبره يسأل عن علة الوجود، ثم يسلم بنتيجة تفيد بأنها صادرة عن القوة الإلهية، من أجل ذلك فإن القرآن، وهو يعرض بعض القضايا العقدية يرشد العقل إلى اكتشاف العلة، وقد يبسطها له بالذكر الصريح، وقد يضمرها، ويدل على قرائنها، فيتحرك العقل في إظهارها، إذا استوى في المنهج، وتحرر من الوهم والهوى، فقد يتساءل متحير: لماذا دانت كثير من الشعوب بتعدد الآلهة، مع أنها بلغت درجة عالية من التمدن؟ وهذا سؤال لا يقتنع العقل إزاءه إلا بكشف العلة في نقيض هذه الظاهرة العقدية المنحرفة، فيخاطب القرآن ذلك العقل الذي ينشد الاهتداء، ويذكره بأن تلك الآلهة كانت من صنعة الأرض مثل الإنسان، ويلزم في حق الإله أن يخالف المخلوق المعلول. فيقول تعالى في استفهام إنكاري، وتعليل برهاني: ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون. لو كان

فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ [الأنبياء 22،21]، ويعلل في سياق آخر بطلان افتراض تعدد الإلهة تحت أمرة إله أعظم، بأنهم لا يستحقون وصف إله، لإحتياجهم إليه، والذات الإلهية تتصف بالغنى المطلق، والقدرة غير المتناهية: ﴿ قل لوكان معه آلهه كما يقولون إذا لا يتغوا إلى ذي العرش سبيلا ﴾ [الإسراء 42]، فذكر العلة في هذه الآية كان وسيلة العقل المنهجية في الوصول إلى النتيجة المحققة وهي كون الإله واحداً لا يتعدد وهنالك إفتراض آخر محتمل في الذكر باطل في البرهان، وهو أن يتفق الآلهة في تقسيم المهمات بينهم، ويستقل بعضهم عن بعض بتصريف أمور كما توهم اليونان إلهاً للجمال، وإلهاً للحب، وإلهاً للحزن، وإلهاً للشعر، وأخر للخمر، وكما يزعم النصارى في تعدد الأقانيم الآب والابن وروح القدس، فيبطل القرآن ذلك ويكشف علة القهر والغلبة، وهي من خصائص الألوهية، فيقول تعالى: ﴿ ما إتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله، إذاً لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾ [المؤمنون 91] .

ويوجه الله العقل إلى خلو القرآن من التناقض، وأن الاحتراس منه لا يقدر عليه كاتب مهما بلغ من الدقة والحكمة: ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اتلافاً كثيراً﴾ [النساء 82]، كما يوجه العقول إلى البحث في المؤثر بالرزق والإحياء والأمانه، وتقرير مصير الإنسان في صورة إستفهامية، تجعل العقل عاكفاً على البحث في ذلك المؤثر، ثم التسليم بأنه لن يكون إلا الخالق الذي لا ينتهي مدده، ولاتحد ذاته بزمان أو مكان أو حال، فيقول تعالى: ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض، أم من يملك السمع والأبصار، ومن يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ومن

يدبر الأمر، فسيقولون الله﴾ [يونس 31]. ثم يعاود المسألة بعد الدلالة على أن الله هو الخلاق الرزاق: ﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ [يونس34]، ثم يعاود لفت البصائر: ﴿ قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ﴾ [يونس35].

ويقطع الله عذر من يتعلل ويعجز عقله عن إدراك حقيقة التوحيد، ويدعي أنه في لبس من هذه القضية، فيعلق الله عقاب من فرط في الإيمان به ببعث الرسل ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ [الإسراء 15]، ويصور إفتراض تعلل المشركين بترك بعثة الرسل: ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله، لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ [طه 134] .

ويعلل القرآن الكريم ضرورة الآخرة، وأنها علة الجزاء، وأن التلازم موصول بين عمل الإنسان في الدنيا وجزائه في الآخرة، فقال تعالى: ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ المؤمنون 115، ويقدم القرآن خلق الإنسان دليلاً على الآخرة:﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى، ثم كان علقة فخلق فسوى، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ [القيامة من 36 إلى 40]

ويد حض القرآن دعوى الكافرين في إنكار البعث بإظهار العلة المؤثرة في خلق الأرض ومن فيها، حيث قالوا: ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعثون﴾ [المؤمنون82]، فيجيبهم القرآن بسؤال يقرر العلة المؤثرة: ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون﴾ [المؤمنون 89]، والعلة المؤثرة في الطبيعة وقوانينها هي القدرة الأهية المؤثرة بالبعث والحساب: ﴿ قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة، وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا

أنتم منه توقدون، أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ [يس من 78 إلى 82] .

وقد يؤمن بعض الناس بالآخرة، ولكن على انحراف في الإعتقاد ببعض مواقفها، وفي صورة الثواب والعقاب، كما حدث للفلاسفة الذين أنكروا البعث الجسماني، وحصروا العذاب والنعيم في الروح دون الجسد، فيصحح الله ذلك بقوله: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها، ليذوقوا العذاب﴾ [النساء56]. والقرآن وهو يوضح خلاصة المعتقد السليم في الذات الأهية، يعلل تفرده تعالى في الذات والصفات والأفعال بقوله: ﴿ لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد﴾ [الإخلاص 3،4].

وفي دحض شبهه النصارى في ألوهية المسيح، يعلل القرآن ذلك بأنه تعتريه الأحوال البشرية الناقصة من الإحتياج إلى الأكل والتخلص من آثاره، فيقول تعالى: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾[المائدة 65]، فيدفع دعوى ألوهيته بأنه خلق من غير أب بمماثلته بآدم الذي خلق من غير أبوين، وفي هذا قياس بعلة ظاهرة في المقيس عليه: ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ [آل عمران 59]

ولكي يجذب النص القرآني العقل إلى نجاعة أحكامه التعبدية والتشريعية والأخلاقية، يحرك فيه إرادة التعليل، فيظهر له علل بعض المحرمات، والحدود، والعقود، والتعبدات، والحقوق والمعاملات، ففي سر تحريم الخمر، يقول تعالى: ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر، ويصدكم عن ذكر الله، وعن الصلاة﴾ [المائدة91]. وفي تحريم أكل لحم الخنزير: ﴿ فإنه

رجس﴾ [الأنعام 145]، ويعلل شناعة فاحشة الزنا، بقوله: ﴿ إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾ [الإسراء 32]، وقد قال في تعليل حد الزنا :﴿ وحرم ذلك على المؤمنين﴾ [النور3] .

وقال في القذف: ﴿وأولئك هم الفاسقون ﴾[النور 4]، وقد يكون التعليل القرآني لبعض المحرمات الجسدية، موافقاً للطب الحديث، كما في تعليل منع معاشرة الحائض: ﴿ هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ [البقرة 222]، يقول محمد السعدي: (يبين القرآن أن الإتصال الجنسي أثناء الحيض مضر، ويقول العلم: إن الإتصال أثناء الحيض يؤدي إلى الإلتهابات في الأعضاء التناسلية والمجاري البولية عند الرجل والمرأة فضلاً عن الأضرار النفسية)[1]. وفي سد باب الربا، يقول تعالى: ﴿فلكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون﴾ [البقرة 279].

ويقول تعالى في مجمل حكم العبادات والقربات: ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم﴾ [الحج 78] .و تتكرر علة اليسر في العبادات والإلتزامات في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ [البقرة 233]، ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾ [الطلاق7]، ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ [البقرة 185]، ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ [النساء 28] .و توجيهاً للعقل نحو الاعتبار، يعلل القرآن بعض الظواهر والسنن الإجتماعية والحضارية، من ذلك قوله تعالى في ضرورة الصراع بين الأمم والحضارات: ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع

1- دراسات إسلامية / جمعية الدعوة الإسلامية العالمية / ط أولى 1986 ف ص 45

وصلـــوات ومساجـــد ﴾ [الحج 40]، وقـــد ورد ذلك بصيغة مقاربة: ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ [البقرة 251] .

وفي طبيعة الاختلاف بين العقول في الأفكـــار والمعتقدات، يقول تعالى: ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحـــدة فاختلفوا ﴾ [يونـــس 19]، وتكـــرر هذا المعنى في آيـــات أخرى، منهـــا قوله تعالى: ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم﴾ [هود 118،119] .وبســـط العلة منهج قويـــم في التربية القرآنيـــة، فهـــذا لقمـــان يشير إلى علة شناعـــة الشرك والتكبر وهو يعظ أبنه: ﴿يا بني لا تشـــرك بالله إن الشرك لظلـــم عظيـــم، واقصد في مشيك، واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ [لقمان13].

وقال القرآن في فضيلتـــي الصبر والعفو، وهما جمـــاع القوة الإنسانية في التمسك بالفضائـــل: ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ [الشورى 43] و لم تصل أمة إلى التجرد من النفعية الدينوية للأخلاق كما وصلت أمة الإسلام، التي كانت بعد التزامها بمنهج القرآن، تطبق الفضائل في صورة مثلى: ﴿ ويؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة﴾ [الحشر 9]، وكان الممتثلون من المسلمين يذهبون العداوة من صدورهم امتثالا لقوله تعالى: ﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة نه ولي حميم﴾ [فصلت 34]، وهذا من شواهد أن الدافع الأخلاقي في الإسلام ليس النفعية بل القيمة الخيرية الأخلاقية، والتوق إلى مرضاة الله بالطاعة الخالصة، في حين كانت الأخلاق في الحضارات الأخرى سابقة ولاحقة تتحرك بالأغراض على حسب المنافع والمطامع .

وهكذا يعمـــل العقـــل جهـــده في كشف العلل في تفسير الأحكام العقدية والتشريعية والخلقية للقرآن، ليكون نشاطه راشداً، ولتكون الحركة العقلية للإنسان مساوية مع ما وضعه الله من قيم الخير والعدل والكمال، وبذلك يكون الحوار والتعليل مظهرين شاهدين على تسديد القرآن لعقل الإنسان بمنهج متميز بالموضوعية والنزاهة والدقة في التوظيف للمقدمات والاستنباط للنتائج.